(اللغة العربية وإشكالية المصطلح النقدي المعاصر مصطلح الحداثة أنموذجا)

(The Arabic language and the problematic of the contemporary critical term The term modernity as a model)

أ.د مصطفى البشير قط

جامعة محمد بوضياف المسيلة، mostefaelbachir.gatt@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام:2022/11/18 تاريخ القبول: 2022/11/20 تاريخ النشر: 2022/12/25

ملخص: يتناول هذا البحث بالدراسة التحديات التي تواجهها اللغة العربية أمام السيل الجارف من المصطلحات النقدية الوافدة المحملة بركام من الثقافات والفلسفات الغربية التي لاتنسجم مع خصوصيات الهوية العربية بأبعادها الثقافية والحضارية، ولا أدل على ذلك من مصطلح الحداثة، فهو من المصطلحات الزئبقية المائعة التي يصعب الإمساك بتلابيب مفاهيم محددة لها ، وهو أيضا من المصطلحات التي تشيع في نقدنا الحديث فضلا عن حقول معرفية أخرى، فإنه يكتنفها الغموض والإبهام، ويستعملها النقاد في ممارساتهم النقدية بوعي أحيانا،وبدون وعي أحيانا أخرى، على الرغم مما تفرزه من أفكار هدامة على الأدب واللغة العربية تحت حجة التقدم وضغوط العولمة(كالدعوة إلى العامية، وكتابة العربية بحروف لاتينية ، والتخلي عن القواعد النحوية باسم تيسير النحو بحجة صعوبته، والابتعاد عن البلاغة والعروض، والتخلي عن كل ما هو موروث، بما في ذلك القرآن ولغة القرآن.. وما إلى ذلك من الشبهات التي يروج لها باسم الحداثة أدعياء الحداثة).

كلمات مفتاحية: اللغة، المصطلح، الحداثة، االنقد، المعاصر.

Abstract: This research studies the challenges that the Arabic language faces in front of the torrential stream of incoming critical terms that is loaded with a pile of Western cultures and philosophies that do not fit in with the peculiarities of the Arab identity in its cultural and civilizational dimensions. It is also one of the terms that are common in our modern criticism as well as other fields of knowledge, as it is shrouded in ambiguity, and critics use them in their critical practices sometimes consciously, and sometimes unconsciously, despite the destructive ideas it produces on Arabic literature and language under the pretext of progress And the pressures of globalization (such as calling for colloquialism, writing Arabic in Latin letters, abandoning grammatical rules in the name of facilitating grammar on the pretext of its difficulty, staying away from rhetoric and presentations, abandoning everything that is inherited, including the Qur'an and the language of the Qur'an... and other suspicions that it promotes In the name of modernity, the pretenders of modernity.

Keywords: Language, Terminology, Modernity, Criticism, Contemporary.

المؤلف المرسل: مصطفى البشير قط، **الإيميل**: mostefaelbachir.gatt@univ-msila.dz

1.مقدمة:

يعد مصطلح الحداثة من المصطلحات النقدية المائعة التي يصعب الإمساك بتلابيب تعريف محدد لها، وهي من المصطلحات التي تشيع في نقدنا الأدبي الحديث، فضلا عن حقول معرفية أخرى، والتي يلهث وراءها نقادنا المحدثون ،ولا ينفكون يستعملونها مع ما تفرزه من أفكار في ممارساتهم النقدية عن علم وفهم في بعض الأحيان ،وعن جهل وسوء فهم في أحيان أخرى،والتي يلهث وراءها نقادنا المحدثون ،ولا ينفكون يستعملونها مع ما تفرزه من أفكار في ممارستهم النقدية من علم وفهم في بعض الأحيان ،وعن جهل وسوء فهم في أحيان أخرى،فماذا يقصد بالحداثة؟

2.مفهوم مصطلح الحداثة

إذا تتبعنا المفهوم اللغوي للفظ " الحداثة " في المعجمات العربية نجد معناها يدور حول الشيء المستحدث ،الجديد، ففي الصحاح مادة " حدث " يقول الجوهري:" الحديث: نقيض القديم.. والحدوث : كون شيء لم يكن .. واستحدثت خبرا، أي : وجدت خبرا جديدا ، قال ذو الرمة:

استحدث الركب عن أشياعهم خبرا أم راجع القلب من أطرابه طرب[1].

وفي القاموس المحيط المادة نفسها يقول الفيروزآيادي:" حدث حدوثا وحداثة نقيض : قدم... والحديث الجديد" [2].

وانتقل هذا المصطلح في تراثنا من المجال اللغوي إلى المجال النقدي ليستعمل في إطار قضية الصراع بين الشعر القديم والشعر المحدث،معبرا عن الحركة الشعرية الجديدة التي عرفت في العصر العباسي بفعل التطور الحضاري الحاصل ،وانتقال العرب من طور البداوة إلى طور الحضارة .

3.الفرق بين حداثتين

كان من إفرازات هذا التطور ظهور تيار جديد في الشعر استحدث أشياء لم يعرفها السابقون ، وغير في بناء القصيدة العربية ، وفي موضوعاتها، وفي لغتها وأفكارها ، ولكنه كان تطويرا من داخلها ، ولم يفرض عليها هذا التطوير من الخارج فرضا كما هو حاصل الأمر بالنسبة للشعر العربي المعاصر، وبالتالي فلم تكن الأسئلة المطروحة على الحداثة أنذاك بالحدة نفسها وبالريبة والشكوك ذاتها المطروحة على حداثة العصر الراهن ، إذ لا أحد في ذلك العصر كان يشكك في صحة النسخة العربية من الحداثة الشعرية ، بما في ذلك المتعصبون ضدها من علماء اللغة والنحو والرواة الذين كانوا يتعصبون للشعر القديم، ويرون فيه المثل الأعلى ويرفضون كل ماعداه،ومع ذلك لم يطرحوا أسئلة تشكيكية في "هوية" الشعر المحدث.

أما حداثتنا اليوم فهي محل شك ،ومحل تساؤلات في هويتها وانتمائها، فإذا عدنا إلى لفظ "الحداثة" لنحدد مفهومه كمصطلح نقدي معاصر دخل اللغة العربية بقوة، فإننا نجد تضاربا كبيرا في تحديد هذا المفهوم بين النقاد والدارسين، مما يصعب على الباحث الخروج بمفهوم محدد ودقيق لهذا المصطلح النقدي ،إذ يجد نفسه في دوامة من التساؤلات: هل الحداثة هي قطع الصلة بالموروث القديم والخروج عنه؟ هل هي مرتبطة بالتحول أم بالثبات ؟ هل هي التزام بقواعد معينة،أم هي خروج على كل القواعد والأشكال الفنية في محاولة للتمييز والتفرد؟ ما المواصفات الواجب توفرها في النص الأدبي أو النقدي حتى نقول عنه إنه "حديث" ؟.

إن الدعوة إلى الحداثة عند الأدباء والنقاد العرب المعاصرين كانت عن تأثر بالأدب والنقد الغربيين ، ولم تكن تطويرا لتراثنا الأدبي والنقدي - وكعادتنا في ولعنا بكل ما هو غربي – لهث كثير من نقادنا وراء الإفرازات الأدبية والنقدية لهذا المصطلح ،وبينما كان الناقد الانجليزي"ت.س.إليوت" رائد التجديد في الأدب الحديث يعتد بالموروث الشعري راح نقادنا المنبهرين بالحداثة يضربون عرض الحائط بكل ما هو موروث قديم في تراثنا باسم " الحداثة ".

4.الدعوات التنظيرية للحداثة:

ولقد انطلقت الدعوات التنظيرية للحداثة من لبنان،لأنها الأكثر انفتاحا على مناهل الثقافة العالمية، ويعتبر " أدونيس " علي أحمد سعيد أول رائد للحداثة على الساحة العربية، وقد تبنت فكرته حول الحداثة مجلات عربية مثل مجلة " حوار" و " شعر" و" آداب " ، وعلى الرغم من ذلك فإن مفهوم الحداثة لم يتحدد ولم يتبلور عند أدونيس ،ففي كتابه " فاتحة لنهايات القرن" يتحدث أدونيس عن خمسة أوهام للحداثة ،هي:

1- وهم المعاصرة أو الزمنية، وربط الحداثة في القصيدة بالعصر الراهن لإنشائها.

2- وهم المغايرة، وهو اعتبار الاختلاف في الشكل والوزن وفي الوحدة الإيقاعية حداثة.

3- وهم التماثل، وهو محاولة الأخذ بمقاييس الحداثة في الغرب.

4- وهم التشكيل النثري بعد تحطيم الوزن ، والاستغناء عن القافية.

5- وهم الاستحداث المضموني،وهو الاكتفاء بشحن القصيدة بالحديث عن قضايا العصر ومجرياته.[3]

تلك أوهام خمسة للحداثة تحدث عنها أدونيس عند الشعراء والنقاد العرب المعاصرين ورغم ذلك يظل السؤال مطروحا بإلحاح : ما الحداثة؟!

هذه إشكالية أولى بالنسبة للحداثة؛ إشكالية تحديد مفهوم دقيق لهذا المصطلح ،وهي إشكالية تنسحب على الكثير من المصطلحات النقدية المعاصرة التي دخلت اللغة العربية.

5.الفرق بين ممارسة الحداثة والتنظير لها:

الإشكالية الأخرى بالنسبة للحداثة هو أننا نقرأ الكثير من الكتابات النقدية التنظيرية للحداثة ، ولكننا لا نلمس شيئا من هذه الحداثة في شعرنا العربي المعاصر، فهل بالتنظير وحده تتم الحداثة؟

إن هناك صدعا كبيرا بين الشعر العربي المعاصر، وبين الحياة العربية المعاصرة ؛ أصبح الشاعر العربي المعاصر يحلق في فضاءات لا تمت إلى الواقع العربي بصلة ، فضاءات خرافية أسطورية تعود إلى العصور اليونانية ،متبنيا فلسفات غربية هي وليدة ظروف حضارية لا تعيشها الأمة العربية ، وبذلك " لم يعد هذا الشعر ديوان العرب كما كان الشعر القديم"[4].

هذا على مستوى الإبداع، أما على مستوى النقد، فتبدو المذاهب النقدية الغربية الحداثية و ما بعد الحداثية هي المسيطرة على عقول نقادنا وممارساتهم النقدية ،على الرغم من أنها نتيجة لفلسفات ومنظومات فكرية مستمدة من واقع الحضارة الغربية ولا تمت إلى واقعنا بصلة ، فغدا هذا النوع من النقد غريبا عن أدبنا ، وإذا كان أدبنا الحداثي بعيدا عن واقعنا بدرجة، فإن النقد بعيد عنه بدرجتين ، وأصبح الناقد العربي يستهلك المناهج النقدية الغربية كما يستهلك المنتجات المادية للحضارة الغربية بطريقة آلية يقول : د/ شكري عزيز الماضي: " يلاحظ المتتبع لحركة النقد العربي الجديد – في العقدين الأخيرين – تدفق الدراسات الأدبية على الساحة النقدية العربية ، ويبدو العقل النقدي العربي المعاصر معجبا بها ،ومتحمسا لها كأنه وجد ضالته المنشودة بعد صبر مديد ، كما يلاحظ كثرة المؤلفات النظرية والتطبيقية والترجمات المتعددة : للبنيوية الوصفية ، والبنيوية التكوينية ،والسيميولوجيا والنقد الأسطوري ،والنقد التفكيكي... الخ، كما تدرس أسماء رولان بارت، وجوليا كريستيفا ، وتودوروف ، وجولدمان، وفراي، وسوسير ، وياكسون، وغريماس، وجان كوهين، وبريموند، وغيرهم وغيرهم في الكتب والمجلات العربية ويشعر المرء بأن العقل العربي - في معظم الأحيان- يبدو خلال ذلك كله منفعلا لا فاعلا، مستقبلا لا محاورا، محاكيا لا متمثلا" [5].

6.من مخلفات الحداثة الدعوة إلى القطيعة المعرفية مع التراث:

ولو توقف الأمر عند حد الانبهار والاستسلام للمناهج النقدية الغربية لهان الأمر ،ولكن صاحب ذلك دعوات للقطيعة المعرفية التامة مع التراث، حتى مع أولئك الذين

درسوا تراثنا النقدي، وأسهموا بدراسات جادة فيه مثل الدكتور جابر عصفور الذي ابتدأ تراثيا ، وانتهى حداثيا موغلا في التعصب للحداثة إلى درجة التنكر للتراث ، وهذا ما يؤكده هو نفسه في مقدمة كتابه " قراءة التراث النقدي" إذا يقول :" ولم يعد الهدف من قراءة التراث- في النمط الجديد- استعادة الماضي بكل ما يقترن به من قيم جمالية أدبية، فقد أضحت هذه المبادئ والقيم قرينة إطار مرجعي مرفوض، صار التمرد عليه قرينة التحرر الفردي الذي ينطلق من إطار مرجعي مضاد... وإذا كان الإطار المرجعي الجديد يعني استبدال الحاضر بالماضي، والغرب المتقدم بالشرق المتخلف، فإنه كان يعني بداية أول قطعية جادة مع التراث بشكل عام ، ومن ثم بداية تعويل الناقد العربي الحديث على أصول نقدية ليست من صنعه ولا من تراثه ، بل من صنع الغرب المتقدم الذي أصبح اللحاق به حلا لأزمة التخلف"[6] ، فهو هنا يطرح شرط القطيعة مع التراث ، واستبدال الحاضر بالماضي كحل لأزمة التخلف والالتحاق بالركب الحضاري.

وأنا أقول لقد تم هذا بالفعل فقد قطع الحداثيون العرب أواصر الصلة بالتراث ، واستبدلوا الحاضر بالماضي؟ فهل حققوا لأمتهم نهضة وانتشلوها من دركات التخلف؟!

في اعتقادي لقد أدى ذلك إلى مزيد من التخلف ، ومزيد من التشرذم ، ومزيد من اغتراب الذات عن هويتها ،وأصبحنا نعيش في ظل هذه الحداثة المزيفة استلابا فكريا وسياسيا واقتصاديا كما لم نشهده من قبل ، بل الأكثر من ذلك كما يقول الدكتور شكري عياد :" أننا أخذنا نشهد في النصف الثاني من هذا القرن مرحلة تاريخية جديدة أصبح فيها الكيان القومي مهددا بالفناء" [7] ، وهذا ما نلمسه في دعوة جاك دريدا رائد التفكيك الذي ينبهر به كثير من نقادنا ، إذ دعا في محاضرة له بالقاهرة سنة 2000 إلى تفكيك المؤسسات القومية المختلفة (دينية، سياسية، ثقافية... إلخ) و إسناد مهمتها إلى الجامعة، و بذلك يفتح دريدا الباب على مصراعيه للعولمة من ناحية، والهيمنة الأمريكية من ناحية ثانية [8].

7. ارتباط الحداثة بالدعوات المشبوهة:

وهكذا نلاحظ كيف ارتبطت دعوات الحداثة عندنا بأفكار مشبوهة باعتراف الغربيين أنفسهم، ففي دراسة مطولة موثقة نشرتها الباحثة البريطانية " فرانسيس سوندرز" بعنوان: "من الذي دفع أجر العازف؟ دور المخابرات الأمريكية في الثورة الثقافية"، كشفت هذه الدراسة دور المخابرات الأمريكية "CIA" في تمويل أنشطة ثقافية مختلفة، ومن بينها مدارس الحداثة في دول عديدة من العالم، كما كشفت عن أن جزءا كبيرا من ميزانيات أقسام " اللغويات " في الجامعات الأمريكية الكبرى التي يؤمها الطلاب من مختلف أنحاء العالم ومنهم العرب للتحضير لأطروحات الماجستير والدكتوراه ، كانت تأتي من المخابرات الأمريكية عن طريق مؤسسات ثقافية مرموقة، أو مؤسسات وهمية كانت تؤسس لهذا الغرض[9]، وطبعا قد يندهش البعض من تدخل المخابرات الأمريكية في" درس اللغويات" ولكن هذه الدهشة سوف تزول حينما نعلم أهمية " اللغويات " في الحداثة الأدبية والنقدية.

8. الهجوم على اللغة العربية باسم الحداثة:

وفي هذا المجال شن كثير من الحداثيين الحرب على اللغة العربية؛ فقد طالب سعيد عقل بكتابة العربية بالحروف اللاتينية، كما طالب بإدخال تعديلات جوهرية على الكتابة العربية بحيث يقتصر على كتابة الحروف المنطوقة فقط.

وجاء من بعده يوسف الخال صاحب شعار (اختراق جدار اللغة) وطالب بإلغاء الإعراب ، والاستغناء على عدد من الضمائر ،والاكتفاء باسم واحد من أسماء الموصول وهو " اللي" ،وما إلى ذلك من الخزعبلات التي يهدف من ورائها إلى هدم اللغة العربية الفصحى، وقد تصدى يوسف الخال للمدافعين عن اللغة العربية القائلين بأن الفصحى لغة القرآن الكريم وأنها عامل من عوامل وحدة العرب قائلا :"...ثم إنه باستطاعة العربي أن يدرس الفصحى كموضوع دراسي، ويقرأ التراث والقرآن ، وهناك شعوب إسلامية تقرأ القرآن وتصلي به وهي لا تعرف العربية ..." ، وقال رادا على أن الفصحى عامل من عوامل وحدة العرب "... فماذا تفيد وحدة العرب إن هي قامت على أسس مزيفة ومصطنعة

(يقصد العربية الفصحى لأنها ليست لغة الكلام اليومي)... وهناك من يقولون : إن الأخذ بلغة الكلام هو من وحي المستعمرين، والحقيقة هي أن عدم الأخذ بها هو الذي من وحي المستعمرين ،وإسرائيل في الطليعة ، فهم يشجعون على التعلق بالفصحى لتعميق الازدواجية في الفكر العربي من جهة ، ولإبقاء العربي مشدودا إلى حقائق لا صلة لها بواقعه من جهة أخرى"[10]، وللترويج لأفكاره الشعوبية هذه أنشأ يوسف الخال مجلة " شعر" سنة1957 ، وقد " كشف العدد الأول من المجلة عن توجه نحو تبني العامية وإعطائها دورا مجاورا للغة الفصحى في الشعرية العربية... وجاء في العدد نفسه دعوة المجامع اللغوية العربية إلى اتخاذ موقف أكثر حزما من قضية تطوير اللغة وتيسيرها ... ويبدو أن الخال أراد النهوض بالدور المفترض للمجامع اللغوية" [11].

وفي زعم يوسف الخال فإن أهم الصعوبات التي تحول دون تحديث العقل العربي تتمثل في اللغة التي نستعملها على مستويات ثلاثة :لأننا نفكر بلغة ، ونتكلم بلغة ، ونكتب بلغة ، وقد دعا الخال كحل لهذه المشكلة إلى الكتابة بلغة الشعب لغة الحياة " وتجاوز كل الحرص الذي يبديه التقليديون على المحافظة على تجميد اللغة في قواعدها القديمة المتوارثة،لأن هذا الحرص يؤكد حقيقة راسخة وهي أن العقل العربي ليس حديثا بعد" والحل " الحداثي" الذي يقترحه الخال هو استعمال " لغة الكلام / اللغة المحكية " المتطورة على ألسنة شعوبها، فهذه هي لغة الحاضر والمستقبل واستخدامها في الكتابة كما في الحديث أمر محتوم في اعتقاد[12]، ذلك بعض مما يشن من حرب شعواء على اللغة العربية باسم الحداثة من أبناء جلدتنا للأسف الشديد بأقلامهم المأجورة من أعدائنا.

إن أدعياء الحداثة عندنا يعتقدون أنهم يتحركون بإرادتهم ،ولكنهم في الحقيقة ليسوا كذلك لأنهم مثل رقعة الشطرنج تحركهم أيد خفية على علم منهم، أو عن غير علم.

ولا يعني مما سبق قوله أنني أدعوا إلى الانغلاق على ثقافة الذات، وعدم الانفتاح على ثقافة الآخر، فذلك لا يمكن أن يحقق لنا نهضة بقدر ما يسجننا بين جدران الماضي ، ويحرمنا من " ميزة المقارنة وميزة التجديد ، والوقوف على الأساليب الجديدة للتنقيب في الفكر والمعرفة والثقافة" [13] ، ولكنني أدعو إلى الانفتاح الواعي بخصوصيتنا الثقافية

والحضارية ، وأن نعرف كيف نفيد من اتصالنا الثقافي بالآخر بدون أن نحدث قطيعة معرفية مع تراثنا كما يفعل أغلب النقاد والباحثين الذين تبنوا مفاهيم الحداثة وما بعد الحداثة الغربية بكل ما تحمله من تراكمات معرفية وإيديولوجية .

9.خاتمة:

ليس من وكدي في هذا المقال أن أزرع اليأس و التشاؤم ، ولكن الصورة تبدو أشد قتامة مما رسمته، فقد أودت بنا حداثة الآخر التي نتبناها بدون تطويع لها لتنسجم مع هويتنا وخصوصيتنا الثقافية - إلى حالة من التخلف والانحطاط والاستلاب ، وأدخلتنا في نفق مظلم ما أخالنا ندرك بصيص نور الخروج منه في المستقبل القريب.

10. الهوامش

1) الجـــوهري، الصـــحاح،تحقيق أحمـــد عبـــد الغفورعطـــار،بيروت،دار العلـــم للملايين،1974،مادة(حدث).
2) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999 ، مادة(حدث).
3) مصـطفى البشـير قط،ينظـر مقـال وهـم الحداثـة: ،جريـدة النصر،قسـنطينية،عدد5،4478 أفريل، 1988 .
4) عبـد الرحمـان محمـد القعود،الإبهـام فـي شـعر الحداثـة : ،سلسـلة عـالم المعرفـة ،الكويت2002،ص296.
5) شـكري عزيـز الماضي،من إشـكاليات النقـد العربي الجديـد : ،المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشر،بيروت،1997،ص،105.
6) جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، دار سعاد الصباح ،القاهرة ،ط1992،1،ص:37-38 .
7) شـكري عيـاد، المـذاهب الأدبيـة والنقديـة عنـد العـرب والغـربيين: ،سلسـلة عـالم المعرفة،الكويت،1993،ص:12 .
8) عبد العزيز حمودة، ينظر المرايا المقعرة، سلسلة عالم المعرفة ،الكويت،2001،ص:49.
9) ينظر المرجع السابق،ص:73،35-75 .
10) ينظر مقـال تجديـد القـديم،وتقويم الجديـد ، مجلـة الأمـة ،الدوحة،قطر،العـدد 53،السـنة الخامسة،شباط"فبراير"1985، ص23.
11) سـاندي سـالم أبـو سـيف، قضـايا النقـد والحداثـة: ،المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشر،بيروت،ط2005،1، ص186.
12) المرجع السابق ص188.
13) سـمير سـعيد، مشـكلات الحداثـة فـي النقـد العربـي: ،الـدار الثقافيـة للنشر،القاهرة،ط2002،1،ص:10.

قائمة المصادر والمراجع:

1. -تجديد القديم،وتقويم الجديد،مجلة الأمة،الدوحة،قطر،العدد 53،السنة الخامسة، شباط" فبراير"1985 .
2. - جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، دار سعاد الصباح ،القاهرة ،ط1، 1992.
3. -الجوهري، الصحاح،تحقيق أحمد عبد الغفور عطار،بيروت،دار العلم للملايين،1974
4. -ساندي سالم أبو سيف، قضايا النقد والحداثة: ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005.
5. -سمير سعيد، مشكلات الحداثة في النقد العربي: ،الدار الثقافية للنشر،القاهرة،ط1، 2002.
6. -شكري عزيز الماضي،من إشكاليات النقد العربي الجديد : ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ،1997.
7. -شكري عياد، المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين: ،سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1993.
8. -عبد الرحمان محمد القعود،الإبهام في شعر الحداثة : ،سلسلة عالم المعرفة ،الكويت2002.
9. -عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، سلسلة عالم المعرفة ،الكويت،2001.
10. -الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999
11. -مصطفى البشير قط، وهم الحداثة: ،جريدة النصر،قسنطينية،عدد5،4478 أفريل، 1988 .